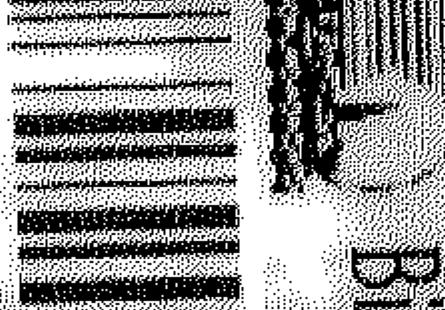
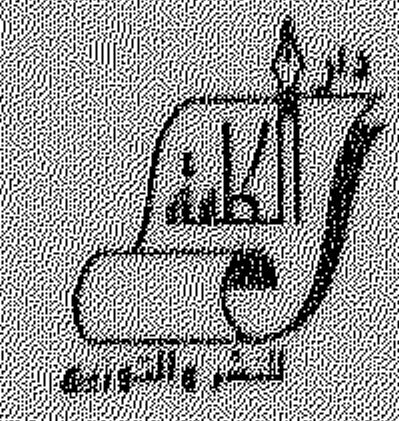
هل من السلفية؟

ألا ندرس القرآن

عبد المجيد صبح

من علماء الأزهر





هل من «السلفية» ألا ندرس إلا القرآن

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

رقم الايداع : ١٣٨٩٤ / ٩٧

الترقيم الدولى : 977-5826-63-2

دار الكلمة للنشر والتوزيع ـ مصر ـ المنصورة

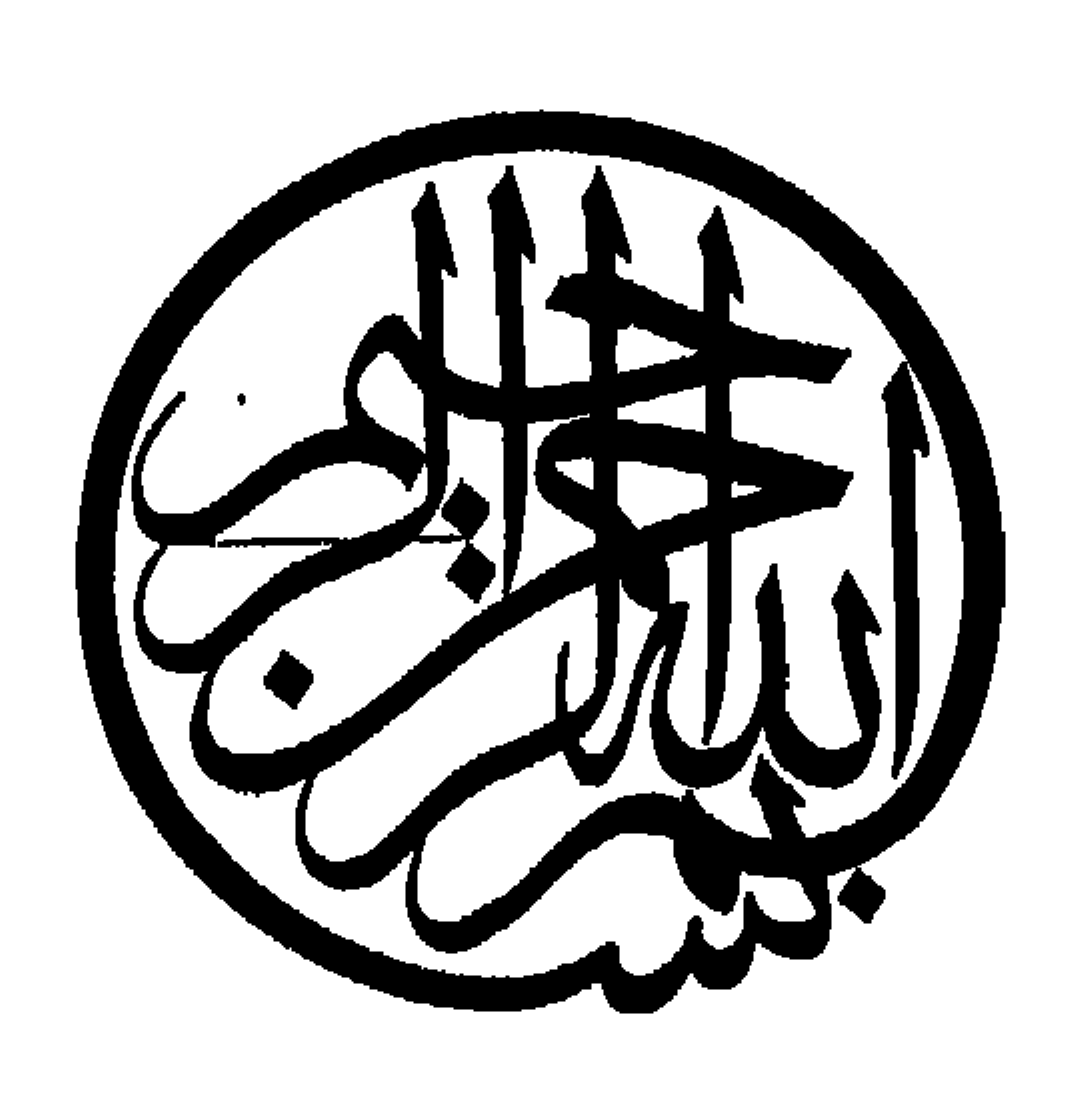
٣٨ ش الثورة (السكة الجديدة) ت ، ف: ٣٤٣١١٥ ص.

من
قضايا الإسلام والمسلمين
فى الغرب
(٩)

هل من «السلفية»
ألا ندرس إلا القرآن

عبد المجيد حامد صبح

دار الكلمة للنشر والتوزيع - مصر



بسم الله الرحمن الرحيم

هل من « السلفية » ألا ندرس إلا القرآن ؟

١ ـ هكذا يقولون، ومثله قالوا !

فى أمريكا قطع على كلامى من يقول: إن الرسول ﷺ أنكر على عمر قراءته فى ورقة التوراة، وقال له: «**لو كان موسى بن عمران حيا ما وسعه إلا اتباعى**». وكان ذلك لأنى كنت فى معرض مقارنات الأديان، وفى وجوب أن يغتنموا مقامهم فى أمريكا، ليتعلموا من مدنيتها ما يفيدون به دينهم وأمتهم. فكان ذلك جوابهم، وهو فكرهم !

قلت لمقاطعى :

إن عبد الله بن عمرو ـ وهو أكثر حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم ـ حمل إليه حمل بعير من كتب أهل الكتاب قرأ فيه، وحدث عنه. قال مقاطعى: لا شأن لى .

قلت: إن الصحابة حدثوا عن أهل الكتاب، وعن كعب الأحبار، ووهب بن منبه. ووهب بن منبه هذا روى عنه البخارى

وعن أخيه همام بن منبه. الجواب: لا شأن لى .

قلت: الإمام الغزالى كتب: الردّ الجميل، على النصارى من الإنجيل.

والإمام ابن القيم. فى بيان أى اسمى النبى كان أسبق: محمد أم أحمد ؟

استشهد بما فى التوراة، فى سفر التكوين من اسم: « ماد ماد » ونقل عن بعض شروح التوراة معنى هذا الاسم.

وابن القيم كتب كتابه: هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى.

وابن القيم وهو يرد على الإمام السهيلى، شارح السيرة ـ واستشهاده بالتوراة على اسم النبى عليه السلام ـ يرد عليه من مصدره نفسه.

وأستاذ ابن القيم: ابن تيمية، علىّ الكعب فى علوم المعقول والمنقول ـ كتب كتابه الموسوعى: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».

ومن قبلهما كتب الإمام ابن حزم موسوعته: الفصل فى الملل والأهواء والنحل.

والإمام محمد بن عبد الكريم الشهرستانى، المولود بعد موت

ابن حزم ـ كتب كتابه المرجعى : الملل والنحل، درس فيه ديانات أهل الأرض.

وما زال علماء المسلمين يدرسون أديان أهل الملل دراسة مقارنة إلى عصرنا الحاضر، الذى درّس فيه الشيخ عبد الوهاب النجار اليهودية والمسيحية، فى محاضرات فى كلية أصول الدين، فى ثلاثينيات قرننا العشرين.

* ومن بعده ألقى فى الكلية نفسها الشيخ محمد أبو زهرة « محاضرات فى النصرانية » ومقارانات الأديان. وأنا درسته على يديه فى وزارة التعليم العالى بمصر.

وفى كلية أصول الدين درست على يدى أستاذنا المرحوم د. الشيخ محمد غلاب الديانات الشرقية القديمة، ثم فلسفة الإغريق.

وشيخ الأزهر د. الشيخ عبد الحليم محمود ترجم من الفرنسية كتاب: المسيحية نشأتها وتطورها.

والشيخ. (رحمت الله الهندى) كتب كتابه: «إظهار الحق» الذى قال عنه الشيخ رشيد رضا فى تفسيره: إنه خير كتاب ألف فى موضوعه، واعتمد عليه فى دراسته لليهودية والنصرانية فى تفسيره. وكان هذا الكتاب ردًا على الحملة الاستعمارية القوية على الإسلام، لغرض زعزعة المسلمين الهنود فى إسلامهم،

وفتنتهم فيه. فكان هذا الكتاب ردودا مفحمة، أظهرت سلامة الإسلام وسمو عقيدته، وصحة نبوة محمد، عليه السلام، كما أظهرت بطلان نسبة الكتاب المقدس، وما فيه من معالم بشرية، وما فيه من تناقض لا يمكن رفعه... وكان كل ذلك فى مناظرات عامة، يدعم، غرضها التبشيرى الاستعمار بإماكاناته السياسية، والمالية...

والشيخ عبد الرحمن زادة كتب (الفارق بين المخلوق والخالق) والقرافى كتب (الأجوبة الفاخرة) والحكيم السموءل كتب: بذل المجهود فى إفحام اليهود. أفترى كل هؤلاء، على مرّ هذا التاريخ، إلى يومك الكائن - مخطئين، خارجين عن حديث رسول الله ﷺ، وتراك أنت أفهم لمراد رسول الله، من الصحابة، ومن علماء المسلمين، منذ عصر الصحابة إلى يوم الناس هذا ؟ !

فما كان جوابه إلا أن يقول: « مليش دعوة».

٢ - وبعد هذه الواقعة فى أمريكا، دعانى فى مصر، داع إلى أن أستمع له خطبة الجمعة، فكان موضوعها: لكى نصطبغ بصبغة الإسلام لابد أن نحقق ثلاثة، بدأها بأولاها: أن نلبس الجلباب ونلتحى، وألا ندرس إلا الكتاب والسنة، وأن نقف بفهمهما عند حد فهم السلف !!

إى وربك كان ذلك، وكان منه: أن صلاح الدين عندما أراد

أن يحرر القدس تجلبب والتحى.

إننى لا آخذ هذا الكلام مأخذ الهزل، ولا مأخذ من يظن أن ذلك يصدر عن فراغ، لا يجد ما يشغله من علم الإسلام، فيشغله بالغلو فى(التحسينيات) أداء لشعيرة الجمعة ؛ لأنه منهج، قاموا عليه سنين دأبا، ويتسامرون به ويناظرون عليه، إلى حد قولهم: لن يحرر القدس إلا أصحاب الجلابيب واللحى!! وقال د. عبد الله قادرى(سعودى) فى كتابه: حوارات مع أوربيين غير مسلمين: كثير من الطلبة السعوديين ينتقدون تقديم الإسلام بالمنهج العلمى، وإظهار الإعجاز العلمى للقرآن، كما يعرضه الشيخ عبد المجيد الزنادى، ويقولون: يكفى الدعوة بالكتاب والسنة (ص٢٦).

٣ ـ إنها (حالة) يدعمها كتابات تلبس لبوس العلم والسلفية.

ـ فى كتيب: (مجموعة رسائل وفتاوى) طبع الرياسة العامة لإدارات البحوث بالرياض، يرد على من يرمى العلماء، علماءهم بالمداهنة وممالأة الحكام، ويقرر أن القرآن والسنة قررا فرض السمع والطاعة، وأنه أمر «لم يستثن برا من فاجر، وأن النبى نهى عن إنكار المنكر إذا أفضى إلى الخروج عن طاعة ولى الأمر. وأن هذه الطاعة هى فصل النزاع بين أهل السنة وبين الخوارج والرافضة» وأكثر من ذكر أحاديث: " المبايعة، والطاعة. كما يقرر: مجانبة غير المسلمين مطلقا، وعداوتهم، واعتبار العداوة أصل العلاقة!

ولست الآن بصدد هذا الاستشهاد، لكن أقول فى عجالة: من من حكام المسلمين أخذ مكانه بالمبايعة الحرة؟ وأين تقرير العلماء: أن من الخوارج أهل حق؟ وهل كان الحسين، رضى الله عنه، خارجيا مارقا عندما خرج على الظلم؟ وأين أحاديث الرسول فى وجوب نهى الظالم؟ وأين قوله فى شرط الطاعة: ما أقام فيكم كتاب الله؟ وأين حديثه فى سيد الشهداء بعد حمزة، الذى قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله؟ وأين ما فرض من نصح الأئمة؟ وأين تقرير سيد السلف ـ بعد الرسول عليه السلام ـ الصديق، فى خطبته العظيمة، يوم ولى: . . . وإن أسأت فقومونى؟ وأين قول الفاروق: من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقوّمنى ؟ وأين ردّ بعض الشاهدين عليه: لو رأينا فيك اعوجاجا لقوّمناك بالسيف؟ وأين وأين ؟ مما لست أذكره ؛ إذ لست أنساه !

ويح علمائنا !!

إن مبدأ أهل السنة فى ترك المقاومة، إذا ترتب عليها ضرر أكبر، عملا بقاعدة: تعارض درء المفاسد وجلب المصالح، وقاعدة ارتكاب أخف الضررين ـ هذا المبدأ قد أسىء تطبيقه، حتى أيدوا الظلم وأهله، وأطاعوهم بشبهة هذه القواعد، حتى ضاع الإسلام وشرعه، وتضعضع كل ملك لأهله. وأصبحت بلاد المسلمين مثلا للتخلف، والاستبداد، وبلاد غيرهم مثلا فى الشورى، واحترام

الإنسان. ثم يلقى - باسم العلم والعلماء والدين - هذا الإصر على الإسلام!

إن (التوحيد) الذى يكثرون الحديث فيه، بمفهومهم، إنما هو - فى جوهره - رفض لفساد الإنسان، بخضوعه لغير الله، وإهانة إنسانيته أمام المخلوق فهل يتفق هذا الجوهر والسكوت عن الظلم والظالمين لمجرد (أنه منا)؟ وكيف يكون (منا) من يقوم بالظلم، ويقيم عليه، وقد قال ﷺ: «**من غش فليس منا**»[1] وإذا كان هذا التوجيه النبوى الكريم فيمن غش فى بيع سلعة، فكيف بمن يغش أمة؟

إن هذه (التربية) الخاطئة هى التى مهدت لشعوب الإسلام اليوم، وقبل اليوم، الرضا بظلم الغاصبين من أعدائهم. وهى التى سوغت (لعلماء الجاه) أن يفتوا بحل الاستعانة بدول الغرب على أمة مسلمة. فاستبدت بأمر المسلمين، وابتزت خيرات أرضهم، وأكلت أموالهم، وخرّبت ديارهم، ثم دفعت شعوب العرب خاصة لهم ثمن تدميرهم بلادهم!!

ألا ويح علمائنا! ثم ألا ويح علمائنا!!!

لقد أخبرنا الشيخ بأن الرسول عليه الصلاة والسلام نهى عن إنكار المنكر إذا أفضى إلى الخروج عن طاعة ولى الأمر. ولا

---

(١) مسلم، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وأحمد.

أدرى، ولست إخال أدرى، فى أى حديث شريف هذا النهى عن النهى ، بيد أنى أدرى حديث أنس: يارسول الله، متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ قال: «**إذا ظهر فيكم ما ظهر فى بنى إسرائيل: إذا ظهر الإدهان فى خياركم، والفحش فى شراركم، والملك فى صغاركم، والفقه فى رذالكم** » قال صاحب المنار: أورده الحافظ وأقره (المنار ٨: ٣٩٨).

ومن تناقضهم العجيب أنهم طبعوا، مجدداً ونشروا رسالة: «سبيل النجاة» التى كتبت لإلهاب الحماس ضد الدولة العثمانية حينما كانت حربا على نجد. فأين هذه الطاعة التى جعلوها أصلا إسلامياً؟

هذا مثل لتناقضات الأهواء، المفضى إلى العمل ببعض النصوص دون بعضها.

٤ ـ ولنعد إلى أصل موضوعنا. إن من حججهم فى رفض كل علم سوى القرآن والسنة قول الله تعالى: ﴿**ما فرطنا فى الكتاب من شىء**﴾ وقوله: ﴿ **وكل شىء فصلناه تفصيلا** ﴾.

وبحديث عدم رضا الرسول ﷺ ، عن قراءة عمر ورقة من التوراة. ويسوقون أقولا فيها قضايا كلية، مثل قول صدر الدين، شارح الطحاوية، فى مقدمته: وقد بين الله بالقرآن كل شىء، وأكمل للرسول ولأمته الدين خبرا وأمرا، ويسوقون أبياتا

للشافعى، رضى الله عنه:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة	إلا الحديث وإلا الفقه فى الدين
العلم ما كان فيه : قال : حـــدثنا	وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وأقول: كل هذه الأدلة فهمت على غير وجهها.

- أما القضايا الكلية فى القرآن الكريم، فليست على ظاهرها، وإلا لقلنا، مثلا، أين فيه مقادير الزكاة، والكيفيات التفصيلية فى سائر الأركان؟ وأين فيه أحكام المحسوسات ؟ وأين فيها أحكام البديهيات؟ . . . . إنما هذه الكليات تفهم بسياقها، وذلك كقوله تعالى: ﴿ **تدمر كل شىء بأمر ربها** ﴾ فدمرت ما شاء الله . وبهذا الفهم ردّ إمام أهل السنة أحمد على القاضى إسحق بن إبراهيم، فى محاكمته فى محنة خلق القرآن، إذ قال للإمام: أليس الله خالق كل شىء ؟ يعنى: والقرآن شىء، فيكون مخلوقا. قال الإمام: قد قال الله: ﴿**تدمر كل شىء** ﴾ فدمرت إلا ما أراد الله.

فالكلية فى أن الكتاب ما فرط الله فيه من شىء. . .على تفسير الكتاب بالقرآن - يراد بها: كل شىء من قواعد الدين وأحكامه، وما أراد الله تفصيله، أو ذكره من دينه. فإذا فسر (الكتاب) باللوح المحفوظ، فذلك أمر خارج عن موضوعنا.

وكذلك الكلية فى قوله: ﴿ **وكل شىء فصلناه** ﴾ أى : مما أراد هو تفصيله من دين أو دنيا. وليس الآية هذه حديثا عن القرآن،

إنما هى بيان لعلم الله ، وجعله كل شىء فى الوجود بمقدار، فليس شئ من أمر هذا الوجود متروكا للمصادفة والجزاف: وكذلك قوله: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء﴾أى : يتعلق بأمور الدين، فهى فيه إما نصا، وإما بإحالته على السنة، حيث أمر باتباع النبى ، وقال له: ﴿لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ .

ويقولون: العقل محدود. ونقول: محدودية العقل لا تبطل عمله. ومن قال: العمل بالنص يعنى: العمل بدون فهم فليس منهجه من الإسلام فى شىء .

أما حديث عمر، وعدم رضا النبى، عليه السلام، فمن عجب أنهم يأخذون هذا الحديث ثم يقفون عنده، ليتركوا ما وراءه؛ لينتهوا إلى ما يحكمون،من هذه (الصورة المغلقة) للإسلام والمسلمين. كالذين يؤمنون ببعض الكتاب. وتركوا قوله عليه السلام: «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » قال الحافظ: أى لا ضيق عليكم فى الحديث عنهم؛ لأنه كان تقدم منه الزجر عن الأخذ عنهم. ثم حصل التوسع فى ذلك. وكأن النهى وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية، والقواعد الدينية، خشية الفتنة. ثم لما زال المحظور، وقع الإذن فى ذلك؛ لما فى سماع الأخبار، التى كانت فى زمانهم من الاعتبار.

قلت: وهذا التعليل من الحافظ جرى على القاعدة الأصولية

من ربط الحكم بعلته، فإذا زالت العلة زال الحكم. وهذه الإجازة يدعمها ما كان النبى يحكيه للصحابة عمن كان قبلهم. وكان يقول لهم: «**كان فيمن كان قبلكم.....**» وقال لهم، على جهة التعيين: «**إن ثلاثة فى بنى إسرائيل: أبرص، وأعمى، وأقرع، بدا لله عز وجل أن يبتليهم...**». (البخارى ومسلم).

وأما ما ينسب من الشعر إلى الإمام الشافعى، ومثله كل ما ينقل عن أئمة السنة إنما هو نهى عن (علم الكلام) الذى يترك فيه الكتاب والسنة، وينتهج (العقل) وحده لمعرفة (الغيبيات) الإلهية، والنبوية، والأخروية. وليس هو نهيا مطلقا عن الاستفادة العقلية التى لا تهمل (النصوص) والإمام أحمد، وهو المثل فى الاعتداد بالنصوص لم يكن مجافيا كل الجفاء (لعلم الكلام) الذى لا يجافى الكتاب والسنة، جاء فى : (معجم أعلام الفكر الإنسانى) المجلد الأول، فى ترجمة الإمام أحمد: إن ثبات الإمام أحمد فى مسألة (خلق القرآن) يدل على تصور معين لبعض قضايا علم الكلام، يجب تقديره من وجهة النظر التاريخية. ولابن حنبل كتابان مطبوعان، يمكن الرجوع إليهما لتصوير منهج الإمام العقلي، وهما: الرد على الجهمية والزنادقة، و (كتاب السنة) وفى كل من الكتابين نجد آراءه فى عدد من المسائل الجدلية، التى يثيرها ردًا على أقوال الجهمية والمعتزلة.. وعلى الرغم من أن ابن

حنبل لم يعمد إلى محاولة عقلية منطقية لتبرير رأيه، فإنه قد حاول دحض آراء خصومه بتأويل بعض الآيات تأويلا يتفق ومذهبه فيفسر ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا﴾ لا بمعنى: المخلوق، وإنما يفسر (الجعل) فى هذه الآية بمعنى: فعل الله فعلا من أفعاله، وهو غير معنى الخلق. أى يسره بلسان نبيه عربيا مبينا. ويفسر (الذكر) فى قول الله: ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾. وهى من حجج القائلين بخلق القرآن، يفسره بأنه ذكر الرسول، وهو يجرى عليه الحدث. والمقصود بالآية، فى رأيه: أن النبى كان لا يعلم، فعلمه الله، فلما علمه الله كان ذلك محدثا إلى النبى، ﷺ.

٥ ـ بهذا البيان الحق، لا نرى فى كتاب الله، ولا فى سنة نبيه، ولا فى أقوال علماء الإسلام ما يحرم دراسة العلوم، ولاسيما العلوم التجريبية التى تقوى المسلمين، وتكون درعا واقية لهم ولدينهم، ولأرض الإسلام، التى ينهبها أعداؤه، بما لهم من تلك القوى!

ولا نرى ما يقرر أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هى العداوة والحرب. بل نرى فيه غير ذلك من حيث الاستدلال، ومن حيث التطبيق:

ـ رأينا الله يجعل غاية آيته فى اختلاف الناس شعوبا وقبائل تعارفهم وتعاونهم، ويصدر ذلك بنداء إنسانى عام: ﴿ يأيها الناس

إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ (الحجرات: ١٣) .

- ورأينا الله يقرر أصل علاقة المسلم بغيره على مسالمة المسالم فى قوله: **﴿ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾** (النساء: ٩٠).

- وفى الحرب رأينا الله يجعلها مقابلة بالمثل ردا للعدوان فقال: **﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة، واعلموا أن الله مع المتقين﴾** (التوبة: ٣٦) .

وإن تعجب فعجب استشهادهم بهذه الآية على تأصيل علاقة الحرب، ولا يتلون منها إلا قوله: **﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾** ثم يسكتون عن تاليها **﴿كما يقاتلونكم كافة﴾** بل يتجاهلون فاصلتها **﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾**.

٦ - وفى سلوك الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهو قدوتنا الحسنة - نراه شارك فى الانتاج أهل الكتاب، بل والمشركين. قال البخارى: باب مشاركة الذمى، والمشركين فى المزارعة. ونراه تبادل معهم المعاملة المالية، فاستدان من اليهودى، ورهن عنده درعة. وقال البخارى: باب الرهن عند اليهود وغيرهم. وتقرر قبول الهدية من المشركين. قال البخارى: باب قبول الهدية من المشركين. قال الحافظ: أى جواز ذلك، وكأن البخارى أشار إلى ضعف الحديث

الوارد فى رد هدية المشرك. وكما تقبل الهدية من المشرك، كذلك يهدى إليه. قال البخارى باب الهدية للمشرك، وقول الله تعالى: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم﴾** وذكر حديث إهداء عمر حلة إلى أخ له بمكة، مشرك لم يكن أسلم. وأهدى إليه، صلى الله عليه وسلم، ملك الروم فروة طويلة الأكمام مكفوفة بالسندس فلبسها عليه السلام.

ومن سلوكه النبيل ﷺ، أنه كان يدعو للمشركين، ليتألفهم!! وقيل له: إن دوسًا عصت، وأبت، فادع الله عليها. فقال: **«اللهم اهد دوسا، وأت بهم»**. وقيل له: ألا تدعو على المشركين؟ فقال: **«إنى لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة»** !!! (مسلم).

بأبى أنت وأمى ونفسى رسول الله ! ليتنى كنت بين يديك، إذًا لغسلت ـ والله ـ عن قدميك، ولو أذنت، لقبلتك من ناصيتك إلى أخمصيك.

هذا هديك، فى تأليف المشركين، والذين عصوا، وأبوا. فما بال أقوام يقولون بغير هديك، ويسلكون غير سبيلك، يتواصون بمقاطعة أهل الكتاب، ويلعنهم والعبس فى وجوههم... والمأساة أنهم يفعلون ذلك باسم سنتك ودينك. والمأساة الكبرى أنهم إذا ذكروا لا يذكرون، وإذا قيل لهم هذا هديه صلى الله عليه وسلم،

أنكروا على القائل العالم قوله، وردّوا أيديهم فى أفواههم. هذا، ويفعل ذلك من يقيم فى أرضهم، كالذين استوطنوا أمريكا، ويعملون تحت إمرتهم، ويستظلون بحريتهم، ويتحاكمون إلى قانونهم..... !!

هذا أنت، يارسول الله تضع قاعدة عامة كلية، بحبك موافقة أهل الكتاب فيما لم تؤمر فيه بشىء، فسدل شعره، أى يتركه على جبهته، وكان أهل الكتاب يسدلون، وفرق شعره، وكان المشركون يفرقون. (البخارى ـ كتاب اللباس).

وفى التعامل بأسلوب معاملتهم: تعامل عليه السلام بدنانير الروم، وكانت عليها أحيانا صور ملوكهم. ذكر ذلك ابن القيم فى الجزء الثانى من إعلام الموقعين. وذكر المقريزى فى كتابه (إغاثة الأمة) أن نقود العرب، فى الجاهلية، كانت ترد إليهم من الممالك، دنانير قيصرية من قبل الروم، ودراهم فضة. قال: وضرب عمر الدراهم على نفس الكسروية، وشكلها بأعيانها، غير أنه زاد فى بعضها: الحمد لله، وفى بعضها: رسول الله، وعلى ثالثة: لا إله إلا الله وحده، وعلى رابعة: عمر، والصورة صورة الملك لا صورة عمر.... وضرب (سُمَيْر) اليهودى دراهم أيام الحجاج، وصنع للناس صنج الأوزان، وكان الناس لا يعرفون الوزن، فأخذ بها الناس. وقدمت دراهمه مدينة الرسول ﷺ،

وعليها نقوش فيها صورة، وكان سعيد بن المسيب يبيع بها ويشترى، ولا يعيب من أمرها شيئا، بخلاف غيره.

وفى التطبيق العملى، أيضا، أخذ الرسول ﷺ، يوم الخندق، بمشورة سلمان الفارسى؛ إذ أخبره بأنهم كانوا فى فارس، فى مثل هذه الحال، يحفرون خندقا بينهم وبين عدوهم، **فلم يستنكف الرسول من تقليدهم**، والأخذ بتجربتهم. ولذلك أنكرت قريش الخندق، واعتبروه جبنا يتنافى وشجاعتهم، ولم يعبأ الرسول والذين معه بمقالتهم. ويومها قال المهاجرون: سلمان منا، وقالت الأنصار: سلمان منا، فقال ﷺ: «**سلمان منا آل البيت**»[1] إنها منح وسام على صدر سلمان يتنازع منحه، ووضعه على مكانه خيرة المسلمين، فيتلقاه سلمان على أفصح لسان، ويتقبله من خير يد، يد محمد صلى الله عليه وسلم، جزاء هذه المشورة الصادقة، وماتضمنت من الاستفادة من تجارب الآخرين، ولو كانوا مجوسا، أو عباد نيران !!! وذهب الصحابة يستبقون، حتى تم الحفر، فجعله الله سببا لنصره، ولم يتأب الرسول من العمل فى تنفيذ تلك المشورة الواردة من غير المسلمين، ولتنفيذها أخذ المسلمون من يهود بنى قريظة الذين بقوا على ولائهم ـ آلات الحفر، من مساح، وكرازين، ومكاتل.

---

(١) الدر فى اختصار المغازى والسير ـ الحافظ ابن عبد البر ط. دار المعارف ص١٧٠.

وإذا كان الرسول ﷺ ، لم ير فى دينه القيم ما يمنعه من الأخذ بتجربة غير المسلمين سلاحا يحتمى به وقومه ـ فإنه كذلك لم يأب ذلك فى التشريع: فقد همّ أن ينهى الرجل أن يأتى امرأته وهى ترضع، حتى ذكر له أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر الرضيع، فها هو، عليه الصلاة والسلام، هم أن ينهى عن قرب المرضعة، خوفا على الرضيع من الغيلة، ثم يمتنع عن هذا التشريع الشاق، والذى قد يتعذر على الزوج ـ لما علم من تجارب الروم، وهم أهل كتاب، ومن فارس، وهم عبدة نار ـ أنهم يفعلون ما هم أن يحرمه لا يضر الرضيع، فيترك ما هم به من تشريع !!

وفى زيه، صلى الله عليه وسلم، لبس مما صنع فى اليمن، كعادة قومه ؛ إذ كان غالب لباسهم من نسيج اليمن. ولبس ما صنعه أهل الكتاب بالشام، ولبس مما صنع قبط القبط، وكانوا يسمونها القباطى. ولبس عليه السلام الكساء عليه تصاوير رحال الإبل. وأما الثياب والستور، والبسط، التى كان يصنعها النصارى، وعليها الصليب وصورة المسيح وأمه، أو غيرها من الصور فكان يكتفى بهتك الصورة.

٧ ـ وعلى هذه السنة فى تقبل ما عند الآخرين، ما لم يناقض الدين فى شىء ـ جرى أصحابه، لم يمنعهم عن (التجديد) وعن الاستفادة أن الأمر (لم يرد) . وقد تقرر المبدأ فى واقعتين من وقائع

التاريخ الإسلامى، فيهما مدكر لمن يدكر، الأولى: لما هم أبو بكر بقتال المرتدين، وعارضه عمر أولا. كان الصديق يمثل منهج (المقاصد) فى حفظ الدين، وكان عمر يمثل منهج (النص) فكيف يقاتل الصديق من قال: لا إله إلا الله، الذين منعوا الزكاة. فأفهمه الصديق أنها كلمة ذات حقوق، ومن حقها أداء الزكاة.

وفى محاورتهما فى جمع المصحف، كان الصديق يمثل منهج (النص) وكان عمر يمثل منهج (المقاصد) فالصديق يتردد؛ إذ لم يفعل الرسول ذلك، وعمر يستمسك ؛ لأنه خير، يحفظ القرآن. وانتهى الموقفان بانتصار منهج (المقاصد والمصالح) .

٨ ـ وعلى هذا المنهج سار عمر فى سياسة الدين والدنيا:

ففى العبادات:

ـ جمع الناس على صلاة التراويح، وكتب بذلك إلى البلدان. .

ـ وجمع الناس، فى صلاة الجنازة على أربع تكبيرات.

وفى (الأحوال الشخصية):

ـ أمضى الطلاق الثلاث المجموع فى كلمة.

ـ وجعل للمطلقة المبتوتة النفقة والسكنى.

وفى السياسة:

ـ أعطى فقراء أهل الذمة من بيت مال المسلمين.

ـ وأنفذ أمان العبد المجير لمشرك.

وفى الإدارة:

ـ دون دواوين الجند لتسجيل أسمائهم ورواتبهم.

ـ ودوّن دواوين العطاء.

٩ ـ ومن بعد الراشدين اتسعت أرض الإسلام إلى أقصى الأرض، ودخلت فيه أمم شتى، تختلف درجتها من الحضارة، أو البداوة، فلم يضق المسلمون ذرعاً بأهلها، على اختلاف أفكارهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وأزيائهم. وتباعدت المسافة بين عادات تلك الأمم على قدر تباعد أقطارها. وصارت بلاد المسلمين تمثل العالم الإنسانى فى تنوع أفكاره، واختلاف عاداته وتقاليده. عالم واسع شاسع، تعددت فيه المراسم والمواسم. فلم ير المسلمون الأولون، فى إسلامهم ما يحملهم على النكير لهذه الأزياء؛ لأنهم علموا من سنة نبيهم: أن تحرى زى واحد من الملابس، وتحرى رسوم وأوضاع وهيئات تلتزم من غير خروج عليها ـ هذا الالتزام منكر فى سنته عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه لم يلتزم ملبسا واحدا. ويمكن القول بأن قاعدته فى الزى : أنه كان يلبس ما تيسر من اللباس، ومن أى بلد كان. فلماذا، إذًا، لا تتسع صدورهم لاختلاف هذه الشعوب فى زيها وعاداتها ؟!

وكان لتفاعل هذه العوامل المختلفة، التى ميزت كل أمة من

هذه الأمم أثر بالغ فى توجيه حضارة العالم بعد.

لقد تم اجتماع هذه الأمم كلها تحت لواء دوله الإسلام الواسعة، أمم متباينة أشد التباين فى العقائد، واللغات، والاتجاهات، والأجناس، والحضارات، والبيئات الاجتماعية، والاقتصادية. لقد أخضعت دولة الإسلام هذه الدول كلها لسلطانها السياسى، ولكن أنى لها، بل لم يكن بها من الحاجة الدينية إلى أن تمحو ما بينها من التفاوت والاختلاف فى مقوماتها الأساسية والتكوينية.

إن المسلمين ـ بتهذيب الإسلام ـ تركوا هذه الأساسيات لعامل التطور، الذى هو وحده صاحب الأثر الفعال فى تطوير تلكم الأساسيات.

لقد كان هم المسلمين الأول فى تلك البلاد، كما كان هم أهل هذه البلاد ليس متجها إلى الزى، والهيئة، ولا إلى العادة والتقليد... إنما كان همهم (هذه الفكرة) التى حملها المسلمون. أما المسلمون فقد كان همهم أن يطلع أهل هذه البلاد على (هذه الفكرة) التى بها انتصروا على أهل الأرض. أما أهل هذه الأرض فقد بهرهم هذه الحال الجديدة على العالم، والتى كان النصر السريع شاهد صحتها. فرأوا عقيدة يسيرة، لا تعقيد فيها، ورأوا أخلاقا سامية تفرعت على هذه العقيدة، ورأوا نظاما اجتماعيا، واقتصاديا، لا يقل فى يسره وسموه عن عقيدته وأخلاقه.

إن الأولى حملوا (هذه الفكرة) لم يجبروا أحدًا منهم على تغيير عقيدته، أو يمكن أن يفكروا فى تغيير أزيائهم وهيئاتهم؟!

لقد نصت جميع معاهدات المسلمين المنتصرين مع المهزومين على ألا يجبروا عن عقيدتهم وأن تحترم معابدهم.. أفيمكن أن يتدنى هؤلاء إلى الجبر على زى وعادة ؟!

وإذا كان هذا النصر الإسلامى قد استدعى تلك الأمم إلى التفكر فى الحياة الروحية، فإن هذا النصر نفسه قد استدعى أهله العرب المسلمين إلى التفكر فى تلك الحياة الحضارية لتلك الأمم، وانفسح الأفق الفكرى أمام هؤلاء وأولئك. وإن لم يمح هذا التفكر الفوارق الطبيعية بين تلك الأمم.

لقد بهرت تلك الحضارات العرب الفاتحين، فاحترموا وجودها ودلالتها، ودخلوا مدن مصر، والشام، وفارس، فلم يحطموا أثرا، وإن كان ذا دلالة دينية.

لقد انتهى هذا التفاعل إلى قيام حضارة روحها المحيى: عقيدة الإسلام، وجسدها مزيج من فلسفات تلك الأمم، وحضاراتها، وفنونها، وأصبحت بغداد عاصمة الدنيا تمثل هذا المخلوق الجديد.

كذلك تأدى بهذه الشعوب المهزومة إلى أن يخرجوا من خزى الهزيمة أمام المنتصرين إلى أن يظهروا أفضل ما عندهم من فكر، ونظام، وفن.. عساهم ينالون احترامهم وتقديرهم. وقابل ذلك

من الفاتحين المسلمين احترامهم لتلك الفضائل، ولم يمنعهم دينهم من ذلك الاحترام، بل لم يمنعهم من الأخذ منها، ما دام صالحا، ولا يتعارض ودينهم. وهذه مفخرة عظيمة لذاك الدين وأهله.

إن العقل الإنسانى لا يصاب بآفة أخطر عليه من الجمود، الذى يزين له الانغلاق على ما فيه، ورفض كل شىء غيره، واعتباره مقياس الحق والحقيقة فى نفس الأمر. وتلك البلية يراد للعقل الإسلامى اليوم أن تصيبه آفتها، والمصيبة ليس ههنا فقط، بل يراد ذلك باسم الدين والسلفية.

١٠ ـ تفاعل المسلمون وأهل البلاد المفتوحة، أولئك بما حملوا من عقيدة، وأخلاقها، ونظامها، وهؤلاء بما عندهم من حضارة فكر وفنون. واحترم المسلمون الغالبون عادات تلك الشعوب، وتقاليدهم، ولم يقهروهم على غيرها، بل لم يخطر ببالهم ذلك. بل إنهم جاملوهم بالمشاركة والتقدير أحيانا:

ـ جاء فى كتاب الاستيعاب فى أسماء الأصحاب، فى ترجمة معاوية، رضى الله عنه : أنه أول من اتخذ ديوان الخاتم، وأمر بهدايا النيروز والمهرجان.

ـ وفى كتاب الخراج لأبى يوسف: أن عمر بن عبد العزيز أمر عامله بالتخفيف على أهل الخراج فلا يأخذ الخراج على الأرض الخراب، ولا يحملها على العامر، وأن يعمر الخراب... وألا

يأخذ أجور الضرابين، ولا إذابة الفضة، ولا هدية النيروز والمهرجان، ولا ثمن الصحف.

ـ وأراد المرحوم د. محمد حسين هيكل أن يحقق مسألة كتاب عمر إلى نيل مصر، لما امتنع ـ حسب الرواية ـ عن الفيضان، لما أبى عمرو، ما اعتاده المصريون من إلقاء عذراء فيه كى يفيض ـ حسب الرواية ـ أراد أن يحقق هذه الرواية، وزيادة تمحيص حقيقتها، طلب إلى العالم الأثرى أ. سليم حسن أن يمده بعلمه ورأيه، فكان مما أثبته: أن ما قيل عن الوثيقة التى بعث بها عمر بن الخطاب فألقيت فى النيل ليفيض، لا يزيد ـ إن صح ـ على أنه كان مجاراة من الخليفة للمصريين، فى عادة لهم، لا ضرر من مجاراتهم فيها. فقد كان من عادة الكهنة المصريين، ومن عادة بعض ملوكهم، أن يقيموا لإله النيل احتفالا فى بدء الانقلاب الصيفى، يقربون فيه للإله ثورا، وأوزّة، وقرابين أخرى من الخبز، وغيره. ثم يلقون فى النيل وثيقة مختومة من ورق البردى، مخطوطا عليها أمر للنيل أن يفيض ولا يزيد... والظاهر أن المسيحية عفت على القرابين، ثم بقيت الوثيقة... فلما دخل العرب مصر، كانت الوثيقة الإسلامية الأولى هى هذه التى يعزوها المؤرخون إلى عمر بن الخطاب، والتى لم يأمر النيل فيها بأن يجرى كما كان يأمره الأمير الرومانى، وكما كان يأمره الكهنة....

وجدير بالذكر أن المؤرخين المسلمين هم الذين أثبتوا قصة قرابين النيل ورسالة عمر، كما جاء فى كتاب النجوم الزاهرة، فى أخبار مصر والقاهرة.

والقصة كلها ـ صحت أو لم تصح ـ تثبت، فى مضمونها، أن المسلمين لم يجدوا حرجا من دينهم، فى ترك الناس الذين ظلهم سلطان الإسلام، على عاداتهم، بل ومشاركتهم أحيانا. فالذين نقدوا القصة لم يتعرضوا لنقدها من الجانب الدينى. والذين أثبتوها لم يروا فى كتاب عمر، مجاراة للمصريين، نقدا من ذلك الجانب..

وقل مثل ذلك فى مشاركة المسلمين الفرس فى عيد النيروز. وقد احتفظ الشعر العربى بقصائد فى الاحتفاء به، فكان له أثره فى الأدب العربى، كما كان لحضارتهم أثرها فى الفكر الإسلامى، وفى فنونه، وفى حياتهم الاجتماعية.

وكذلك لبس العرب طيلسان الروم، وضربوا المثل به، فقالوا: أو هى من طيلسان ابن حرب. وصار من لباس الخواص من العلماء والمشايخ. ولم يروا به بأسا وهو من لباس العجم، فدخل فى زى العرب، كما دخل لفظه فى لغتهم.

ـ وكما شاركوهم فى بعض عاداتهم، كذلك شاركوهم موائدهم، فأكلوا مع الدهاقين، وهم تجار الفرس، وزعماء

الفلاحين منهم، ورؤساء الأقاليم. ولم لا، والرسول دعا مشركى مكة إلى وليمته على ميمونة !

ـ وبات المشرك فى المسجد، وصلى المسلم فى الكنيسة. قال الشافعى، فى مختصر المزنى: لا بأس أن يبيت المشرك فى كل مسجد إلا المسجد الحرام. وقال البخارى: كان ابن عباس يصلى فى البِيعَة، إلا بيعة فيها تماثيل. وصلى أبو موسى، وعمر بن عبد العزيز فى الكنيسة.

ـ وركبوا(البراذين)وهى من الخيل ما كان من غير نتاج العراب. وهم كانوا يتباهون بالعراب، وسجل شعرهم ذلك، حتى ما من جزء من أجزاء الحصان إلا وله شاهد على شعرهم. وركبوا (الفيلة) ولم يكن الفيل معروفا للعرب عامة إلا بالاسم، وكان من أهم أسلحة الفرس فى حروبهم مع العرب، وفى خلافة عمر أرسلوا فيلا إلى المدينة فخرج أهلوها جميعا يتفرجون عليه، ويتعجبون من خلقه.

ـ وذكر ابن القيم فى(إغاثة اللهفان) من يسر الإسلام، وسماحة النبى عليه السلام: أنه صلى الله عليه وسلم، كان يلبس الثياب التى نسجها المشركون، ويصلى فيها، وكانوا ربما صبغوها بالبول. وتوضأ النبى وأصحابه من مزادة امرأة مشركة. واتخذ العلماء من هذا أن الأصل فى آنية المشركين الطهارة. ولما سألوه، عليه

السلام، عن آنية أهل الكتاب التى يشربون فيه الخمر، ويطبخون الخنزير، ولا يجدون غيرها ـ أمرهم بغسلها، ثم استعمالها. وقال عمر بن الخطاب: لقد هممت أن أنهى عن لبس هذه الثياب ؛ فإنه قد بلغنى أنها تصبغ ببول العجائز، فقال له أبىّ : مالك أن تنهى ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد لبسها، ولبست فى زمانه، ولو علم الله أن لبسها حرام لبينه لرسوله، صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: صدقت.

ولما قدم عمر الجابية استعار ثوبا من نصرانى فلبسه، حتى خاطوا له قميصه وغسلوه. وتوضأ من جرة نصرانية.

وصلى سلمان وأبو الدرداء ﵄، فى بيت نصرانية، فقال لها أبو الدرداء: هل فى بيتك مكان طاهر فنصلى فيه؟ فقالت: طهرا قلوبكما، ثم صليا أين أحببتما. فقال له سلمان: خذها من غير فقيه!!

ـ وسكن المسلمون الفاتحون الدور من بناء القبط والروم. وترك عمرو أكثر المناصب الإدارية لجماعة من الروم، كانوا يتولونها، من قِبَل دولتهم، قبل الفتح، ثم آثروا البقاء بمصر. وشغل القبط المناصب التى تركها الروم ورحلوا إلى بلادهم.

فعل المسلمون ذلك بشرط واحد : ألا يكون مناقضا للإسلام، فليس فى الإسلام أن يجمد المسلم على عادة موروثة ؛ لأنها

موروثة، ولا أن يرفض جديدًا ؛ لأنه جديد، ولا أن يأبى شيئا ؛ لمجرد أنه من غير مسلم، ولا أن يرفض علما عند غيره زاعما بأن القرآن فيه كل شيء.

إن المسلم يفعل - كما يفعل أسلافه - مع احتفاظه بشخصيته الإسلامية، بمقوماتها الرئيسة.

وكان من نتاج هذا التمازج، والتفاعل، بين العرب المسلمين، وبين أهل البلاد المفتوحة، وقوة امتزاج العرب بغيرهم، واختلاطهم بهم اختلاط معاشرة ومعاملة - كان من نتاج ذلك أن تحولت الدولة، وتطورت من دولة عربية إلى أن صارت دولة إسلامية أكثر منها عربية.

١١- لو أخذ المسلمون بمبدأ أصحابنا «لا شيء إلا الكتاب والسنة» لما كانت لعمر (أوليات) ولما كان قد استحق صفة: العبقرى. ففيم كان يقول عنه ﷺ : «**ما رأيت عبقريا يفرى فريه**» إذا كان هو وغيره على منهج (ماذا قال)؟ وهو منهج يستوى فيه الحفاظ والفقهاء، والغفل والعباقرة. فهل استوى عَدِيّ وعمر ؟ بل هل استوى أبو هريرة وعمر؟ كلا، إنها العبقرية التى حقيقتها: التفرّد، والسبق، والابتكار، وليس معنى ذلك كله إلا أن الإسلام بمصدريه لم يقيد المواهب، بل أطلقها، فامتاز أصحاب محمد، كل بميزته، ولم يجعلهم صورة واحدة شكلت عجينتها (وهيولاها) النصوص.

إن آيات الكتاب، وتعبيرات الحديث، ليست طِلسما يتلى، ويدندن به فتفتح(القماقم) وتسكت العقول. ولكنها طب القلوب، وشفاء الصدور، وتنوير العقول. أزالت عن القلوب الران، وعن الفكر القيود، وعن العقول الحجب، فانطلق الإنسان من الرقود، والركون، وانبعث جوالا في كون الله. يستكشف آياته ويتعرف على سننه.

إن ازدراء آيات الكون لا يخدم آيات القرآن، وإن إعلاء آيات القرآن لا يكون بازدراء آيات الكون، وأسرار الله فيه. إن منزل الكتاب هو مجرى السحاب، والذى أمر بتدبر القرآن هو الذى أمر بالتفكر في الأرض والسماء، وإن الذى ضمّن آيات القرآن كل شيء هو الذى لم يفرّط في كتاب الكون من شيء. إن الكتاب السماوى الوحيد الذى توافقت آياته وحقائق الوجود هو القرآن الكريم، فإذا قرأ غيرنا كتاب الكون، وهدوا إلى سننه ونواميسه، ثم هدوا إلى تطبيقها، والانتفاع بها، وتسخير قوتها، لنفع أنفسهم، ثم لإضرارنا - أيكون موقفنا - باسم الدين - تركها، والمجافاة عنها، بزعمٍ لاحقّ فيه: أنه لا علم إلا علم الكتاب والسنة، وأن كل العلوم بعدهما مَضيعة، ووضعية !!

١٢ - إن مفردات هذه القضية، وتفصيلاتها تجمعها كليات ثلاث، تصوغها هذه الأسئلة:

أ ـ هل جاء الإسلام ليقيد العقل ؟

ب ـ ما هو (العلم) فى مقاصد القرآن ؟

جـ ـ ثم ما هى (السياسة الشرعية) ؟

إذا استطعنا أن نجيب عن هذه الأسئلة فقد وصلنا إلى مقطع الحق فى قضية الحوار.

فى السؤال الأول، كان يكفى كل ما تقدم لبيان أن الإسلام بعقيدة التوحيد، قد حرر العقول، كما حرر الضمائر، وحرر الرقاب، وإنه لمن الممكن أن نلخص رسالة الإسلام فى هذه الحرية والتحرير. ذكر النووى فى تهذيب الأسماء أن رجلا قال للشافعى: أوصنى، فقال له: خلقك الله حرا، فكن حرا كما خلقك الله.

وليس هناك أوسع مدى لإطلاق العقل فى ميدانه من كتاب يطالب المشرك بالبرهان، وتتكرر فيه ألفاظ العقل والتفكر ومشتقاتها عشرات المرات، ويتوجه بخطابه إلى أولى الألباب، ويجعل إدراك حقائق القرآن والكون منوطة بقوم يعقلون، بينما عندك (قاموس الكتاب المقدس) فلا تجد فيه لفظة تنتمى إلى هذا الجذر.

وحسبك من دين يجعل العقل مناط التكليف، ويرفع القلم عن غير العقلاء.

لقد اشتمل خطاب العقل فى القرآن جميع وظائفه التى هدى

إليها النفسانيون فى العصر الحديث، وهى - كما يحكى عنها عباس العقاد، رحمه الله:

- العقل (الوازع) الذى يتعلق به الأمر والنهى.

- والعقل (المدرك) الذى يقوم به الفهم والوعى.

- والعقل (الحكيم) الذى يستخلص زبدة الرأى ، ويعبّر عنه بالتدبر والاعتبار.

- والعقل (الرشيد) ووظيفته فوق الوازع والمدرك والحكيم؛ لأن صفة الرشد استيفاء لهذه الوظائف، وبها المزيد، الذى لا يعتريه نقص.

بهذا تقرر، فى الإسلام، فريضة التفكير، وأن (العقل) المخاطب فى القرآن ليس هو: ما يقابل الجنون، وإنما ما يقابل: الجمود والعنت والضلال؛ فإن الجنون يسقط التكليف ويعتذر عنه، ولكن: الجمود، والعنت والإعنات لا يسقط التكليف ولا يعتذر عنه، ولا يسقط الملامة.

العقل فى الإسلام، هو:

- العقل الذى يعصم الضمير.

- ويدرك الحقائق.

- ويميز بين الأمور.

ـ ويوازن بين الأضداد.

ـ ويتبصّر، ويتدبّر.

ولذلك رفض الإسلام تعطيل العقل، بسبب موانع:

ـ (العرف) الذى يتضمن: عبادة السلف، والسلطة الشعبية.

ـ (القدوة العمياء) التى تتضمن: السلطة الدينية.

ـ (الخوف الذليل) الذى يتضمن: السلطة الزمنية.

لذلك رفض الإسلام بناء العقيدة على:

ـ التقليد ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ (الزخرف: ٢٣).

ـ والتخييل﴿أتجادلوننى فى أسماء سميتموها﴾(الأعراف: ٧١).

ـ والظن ﴿ إن يتبعون إلا لاظن ﴾ (النجم: ٢٣).

ـ والهوى ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ (النجم: ٢٣).

ـ والأمانى ﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ﴾ (النساء: ١٢٣).

أيود أحدكم أن يكون له دين غير هذا الدين ؟

أبعد هذا البيان يراد للعلم، وللعقل أن يحبس عن آيات الله في الأنفس والآفاق.

إن الإنسان بطبعه طلُعَة، فإذا علم عند غيره شيئا نافعا أيمنع عنه باسم الإسلام ؟

لقد ضرب لنا الإسلام مثلا فريدا، عندما اصطفى من (الجاهلية) التى جاء لينقضها، خير ما فيها، وأقره، وخلصه من شرها، سواء فى هذا الاصطفاء ما كان منه فى التشريع وفى الأخلاق، أم فى المعاملات:

- هدم الإسلام (نكاح الخدن)؛ إذ كانوا يقولون: ما استتر فلا بأس به، وما ظهر فهو لؤم. وهو المذكور فى قول الله ﴿ولا متخذات أخدان﴾.

- وهدم (نكاح البدل) وهو: أن يقول الرجل للرجل: انزل لى عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتى وأزيدك.

- وهدم (نكاح الاستبضاع) كان الرجل يقول لامرأته: اذهبى إلى فلانا فاستبضعى منه.

- وهدم (نكاح العشرة) كانت المرأة فيه لعشرة يصيبونها، ثم تلحق هى الولد بأحدهم.

- وهدم (نكاح البغايا) اللواتى كن ينصبن الرايات على بيوتهن؛ ليعرفن.

وأبقى الإسلام على نكاح، هو الذى نعرفه اليوم.

وكان الخلع معروفا فى الجاهلية فأقره الإسلام.

وكان القصاص فى الجاهلية يشوبه الظلم، فهذبه الإسلام.

(والقسامة)فى القتيل الذى لم يعرف قاتله، وجد فى محلة قوم عدوله، يحتمل أنهم قتلوه. كانت فى الجاهلية فأقرها الإسلام.

وكان من أخلاق الجاهليين: الكرم والشجاعة، وأقرها الإسلام، مع توجيهها وجهة الخير والإخلاص.

ـ والحِلْف المعروف باسم: حلف الفضول، الذى تعاقدت فيه قبائل: زهرة، وتيم، وأسد، فى دار عبد الله بن جدعان، على نصرة المظلوم، وحضره النبى، وهو صبى. وأخبر به بعد مبعثه، وأخبر أنه لو دعى إلى مثله فى الإسلام لأجاب.

أو ليس فى هذا التعليم من الإسلام للعقول والضمائر أن تنفتح على ما عند الآخرين تنتقى خير ما فيه، تعمر به ديارها، وتثرى أفكارها.

أولا يسند هذه الحقائق ما جاء عنه ﷺ: «**اطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم**» ذكره ابن عبد البر فى: بيان فضل العلم. وذكره السيوطى فى: الدرر المنتثرة، وذكر عن الحافظ المزنى أنه روى من طرق تبلغ الحسن. قال الشيخ

رشيد رضا فى تعليقه على رسالة الأمير شكيب أرسلان: (لماذا تأخر المسلمون) : رواه العقيلى ، وابن عدى ، والبيهقى ، وابن عبد البر. . . وله طرق يقوى بعضها بعضا.

١٣ ـ وهذا يفضى بنا إلى السؤال الثانى : (ما العلم المقصود للقرآن) ؟

من مكرور الكلام أن نتحدث عن اهتمام الإسلام بالعلم، وقد ورد حديثه فى القرآن ألف مرة، أو تزيد. لكن المقصود: ما العلم الذى تحدث عنه القرآن؟ هل هو: علم الدين فقط ؟ دع عنك الآن ما كرره القرآن من حديث عن الكون وآياته، وما أوجب من التفكر فيه، ولنكتف بآية واحدة لنعلم مدلول (العلم والعلماء) فيها: يقول الله فى سورة فاطر (٢٧، ٢٨): ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور**﴾.

أى علماء ترى فى هذه ؟ أو لم يك يكفيهم ما يذكر الله من منه بنعم الكون ومادته على عباده عامة، وعلى المخلصين خالصة خاصة ؟ يقول الله: ﴿ **ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوّبى معه والطير وألنّا له الحديد أن اعمل سابغات..** ﴾ ذكر إيتاءه

الفضل لنبيه داود، ثم بين هذا الفضل وقرن فيه ما هو من عمل الدنيا صرفا: إلانة الحديد ليعمل منه الدروع السابغة ـ بما هو من قبيل الدين الخالص، وهو تسبيح الكائنات معه. وعن سليمان بن داود يقول الله: ﴿ **وأسلنا له عين القطر** ﴾ وهو النحاس المذاب، فتجانس النحاس المذاب والحديد. وأكل داود من عمل يده فى الحديد. وأخبرنا نبينا، عليه السلام: «**أن خير الطعام ما كان من عمل اليد**».

والله تعالى يقول: ﴿ **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله** ﴾ فمن الذى يدرس المعادن، ومن الذى يستخرج منافع الحديد؟ وبم ننصر الله ورسوله، إذا تركنا هذه العلوم لغير المسلمين.

ياحسرة على المسلمين الذين يعيشون لقضية اللحية والجلباب، وبلادهم تأكل من نتاج أعدائها، ويقتل بعضهم بعضا بأسحلة من صنع أعدائهم، ويستهلكون مدنيتهم بمال يبذلونه لأعدائهم. ثم لا يتورعون أن يصطرخوا على كل منبر: لا علم إلا الكتاب، ولا لباس إلا الجلباب !!!!!

١٤ ـ ما العلم الذى علمه الله آدم ؟ لعل فى جواب السؤال، رى الغليل، وشفاء العليل. إن الله تعالى يقول: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾ والمراد بالأسماء المسميات من كل شىء

فالإنسان الذى يعلم كائنات خلق الله هو الإنسان حقا، وهو الذى استخلفه الله حقا، وهو الذى قام بحق هذه الخلافة وواجبها. حيث لم تصلح لها الملائكة الذاكرون، الحامدون، المسبحون. . . ! والله تعالى ذكر من مننه على سليمان (علم نقل الأجسام) ذلك العلم الذى لم يحصله (عفريت الجن) عندما طلب سليمان عرش بلقيس. وأحسنه (رجل) عنده علم الكتاب.

هذا كتابكم ينطق عليكم بالحق، فكيف ساغ لكم ـ باسمه ـ أن تقولوا لا علم إلا الكتاب، ولا زى إلا الجلباب، وما هذا وذاك إلا كذاب، أما كذب الأولى، فقد تبين من تفصيلات هذا البحث. وأما الثانية فإنى أفضل أن أعبر عنها بلسان إمام لا يُكذبونه: الإمام ابن القيم، الذى يقررها فى كتابين له: إذ يقول فى زاد المعاد: تحرى ملابس بعينها، ورؤية الخروج عنها منكرا هو المنكر. وذكر أبو إسحق الأصبهانى أن الصلت بن راشد دخل على محمد بن سيرين، وعليه جبة صوف، وإزار صوف، وعمامة صوف، فاشمأز منه، وقال: أظن أن أقواما يلبسون الصوف، ويقولون: لبسه عيسى ابن مريم، وقد حدثنى من لا أتهم أن النبى ، صلى الله عليه وسلم، قد لبس الكتان، والصوف، والقطن وسنة نبينا أحق أن تتبع. قال ابن القيم: ومقصود ابن سيرين: أن أقواما يرون أن لبس الصوف دائما أفضل من غيره، فيتحرونه،

ويمنعون أنفسهم من غيره، وكذلك يتحرون زيا واحدًا من الملابس، ورسوما وأوضاعا وهيئات يرون الخروج عنها منكرا، وليس المنكر إلا التقيد بها. وقال فى كتابه: إغاثة اللهفان: ومن تأمل هدى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، وسيرته، وجده مناقضا لهدى هؤلاء، فإنه كان يلبس القميص تارة، والقباء، والجبة، والإزار، والرواء. . . وهديه عدم التكلف والتقيد بغير ما أمر به ربه. فبين هديه وهدى هؤلاء بون بعيد.

١٥ ـ كانت الصبغة العامة للفكر الإغريقى فى الاستدلال هى: الاستدلال النظرى، المرتب بقوانين المنطق الأرسطى، عماده: القياس المنطقى، ولم يعدوا المنهج التجريبى دليلا، ولا عنوا به. ولما ورث المسلمون علم اليونان وفلسفتهم، ووقفوا على (علم المنطق) وطرقه فى الاستدلال، نقده جهابذتهم. وكان حسب المسلمين فى ذلك كتاب الإمام ابن تيمية: الرد على المنطقيين، وأعظم كتاب فى التراث الإسلامى عن المنهج. واعتبر المسلمون (دليل التجربة) واهتموا به، وأخذوا فيه الخطوات الأولى، التى بنى عليها الغرب، فى خطوات نهضته الأولى. ثم نسى المسلمون (ما صدّروه) إلى الغرب، ثم عادت بضاعتهم تصدر إليهم على أنها من ابتكار الغرب وثمار حضارته. فكانت استفادة الأوربيين بدءًا لنهضتهم، وكان نسيان المسلمين بدءًا لانحطاطهم وخمولهم

وكان تنبه المسلمين على (المنهج التجريبى) ثمرة لتدبر القرآن ؛ لحضه المكرور على النظر فى كون الله.

ومما يلفت نظر المتدبر للقرآن الكريم: أن دارسه، صاحب الخبرة بالعلوم الكونية يزداد يقينه فى القرآن الكريم، فإن الدراسات الكونية تهدى إلى الإيمان، كما كشف عنه كتابا: (الله يتجلى فى عصر العلم) و(العلم يهدى إلى الإيمان) وتهدى هذه الدراسات الكونية إلى الإيمان (بالقرآن) خاصة، كما تجلى ذلك فى تلك الدراسة القيمة التى قام بها، الفرنسى (موريس بوكاى)، وانتهت بـه إلى الإســلام، واليقين بأن القرآن كتاب موحى به، وليس ـ كما يقول الغربيون ـ: إنه من صنع عبقرية محمد وقد سجل (بوكاى) هذه الدراسة العلمية المقارنة فى كتابه: (القرآن الكريم، والتوراة والإنجيل والعلم) .

أوليس مـن دواعى الأسى والأسف أن يؤمن غربى غذى بكراهة الإسلام، والزعم بإفك القرآن ـ نتيجة لدراسة (علمية) محايدة. ثم نجد من المسلمين، بل ممن يعطون لأنفسهم (صفة التوحد) بالإسلام الخالص ـ نجدهم يزعمون أنه لا علم إلا (نص الكتاب والسنة) .

ألست تجد شبها بين هذا وبين موقف الكنيسة، عندما نقل إلى الغرب (المنهج العربى التجريبى) إذ قاومته بكل سلطانـها الذى لم يكن ملوكهم يجرءون على الخروج عنـه. وكان ضحايا هذه

المقاومة علماء أجلاء، كانوا طلائع المدنية الأوربية.

ومع هذه الحقائق القرآنية، والتاريخية عندنا وعندهم ـ تجد من بني قومنا من يجرؤ، ويجأر: لا علم وراء الكتاب والسنة.

إن الدارس المتدبر يدرك أن (آيات العلوم) فى القرآن أكثر عددا من آيات الفقه. يقول المرحوم بفضل الله، الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره الذى أرشدنا إليه أساتذتنا، ونحن طلاب تفسير القرآن يقول: بالشريعة، من الحدود، والأحكام، والبيع، والقرض، والميراث، وأحكام القضاء، والجنايات، والمخالفات، والجنح، المبينة فى كتب الفقه ـ ما حكموا به الأمم، وعدلوا فملكوا شرقا وغربا. وهذا كله بالشريعة، وهى الأحكام الشرعية المعروفة، التى تدرس فى بلاد الإسلام. وآياتها محدودة. فأما آيات العلوم الكونية فإنها تبلغ نحو سبعمائة وخمسين آية، كلها من عجائب هذا الكون ومنافعه وغرائبه... فكما برع آباؤنا فى القضاء والحكم بين الناس، فلنقم نحن بدراسة الكون العلوى والسفلى، ودراسة النفس، باعتبار أن ديننا يأمرنا بها، وإلا فما الفرق بين ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ وبين قوله: ﴿فصل لربك وانحر﴾ كلاهما أمر، والأمر للوجوب، فإذا نحن قرأنا الأحكام الشرعية، وقضينا بها، فلنقرأ العجائب الكونية، ولنعمل بها، فترقى الزراعة، والصناعة، والتجارة، وإلا فكيف

يقول الله : ﴿ليظهره على الدين كله﴾؟ وكيف يظهر على الأديان إلا بهذه المزية. وهي أن الديانات لا تتعرض لعلوم الكائنات، والإسلام يدعو إليها، ويأمر بها. وهذه خاصة به، لا يشاركه فيها دين من الأديان.

وههنا ميزة سياسية واجتماعية أخرى لهذه الدراسة الكونية، تلك ـ كما يقول طنطاوى جوهرى : إن المسلمين تفرقوا شيعا فى الدراسات السياسية والفقهية، فإذا قرءوا علوم الآفاق، التى أرشد إليها القرآن لم يكن بينهم اختلاف فيها؛ لأنها مكشوفة ظاهرة، والله هو الذى منحهم إياها. فليقرأ المسلمون فى الشرق والغرب جميع العلوم التى برع فيه الإفرنج. وإذ ذاك يرون أن الخلاف بينهم فى الشريعة يسير جدا بالنسبة لما اتفقوا عليه، وأن علوم الخَلْق، من العوالم العلوية والسفلية غذاء، وأن علوم الشريعة، وهي الأحكام الفقهية، التى صرفوا فيها أعمارهم دواء. وكيف يعيش الإنسان إلا بالغذاء، وهو إذا تعاطى الدواء وحده هلك؟! بل الغذاء هو الدائم الطلب، أما الدواء فإنما يكون عند انحراف الصحة(١).

أقول: هذه حقائق حصّلتها على أيدى أعلام فى الفكر والفقه، كانت لهم مكانتهم العلمية المرموقة، ومنهم من دعى إلى جامعات

(١) راجع : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للمرحوم د . محمد محمد حسين : ٢ : ٣٣٤ ـ ٣٣٦ .

الغرب ليحاضر فيها عن الإسلام، ومنهم من صار شيخا للأزهر بعد. . . ومنهم، ومنهم. ثم ظاهر هذا التلقى عمر طويل فى الدراسة الرسمية والشخصية، ثم ممارسات عملية، التقيت فيها شارحا للإسلام، وعقول كبيرة لها علمها، ولها ثقافاتها، لها تخصصاتها المختلفة. . . ثم أجد ـ بعد ذلك كله ـ من ليس من هذا الميدان فى شىء، ومن لا يعرف (الخطّ إلا خرمشة) ولايعرف كوعه من بوعه يعتلى منبرا، يزعمون أنه منبر السنة، فيمحو بلفظة كل هذه الحقائق والسنين. (وتداعى المعانى)، كما يقرر علم النفس، يقهرنى على القفز على الزمن إلى الوراء؛ ليعقد الفكر مقايسة بين من يقوم بهذا المحو غير البصير (وبين أولئك الرعال الأولين، فأكاد أنفطر أسى وأسفا).

١٦ ـ هب أننا أصبحنا كلنا فقهاء، أصحاب شرع، أيغنينا ذلك عن أن نكون أصحاب زرع وضرع، قال الإمام الغزالى، وهو يتكلم فى أنواع العلوم، ما خلاصته: لو سئل فقيه عن اللعان، والظهار، والسبق والرمي لسرد عليك مجلدات. . . وإذا روجع فيه قال: اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية، ويلبس على نفسه وعلى غيره. والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر فى فرض الكفاية لقدم عليه كثيرا من فروض الكفاية، فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة. . . ثم لا نجد أحداً يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه. . . فليت شعرى كيف

يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به ؟!!!

قلت: قال إمام الحرمين فى كتابه (غياث الأمم): الذى أراه أن القيام بماهو من فروض الكفايات أحرى بإحراز، الدرجات، وأعلى فى فنون القربات من فرائض الأعيان؛ فإن ما تعين على المتعبد المكلف، لو تركه، ولم يقابل أمر الشرع فيه بالارتسام، اختص المأثم به، ولو أقامه فهو المثاب. ولو فرض تعطيل فرض من فروض الكفاية، لعم المأثم على الكافة، على اختلاف الرتب والدرجات. . ثم ما يقضى عليه بأنه من فروض الكفاية قد يتعين على بعض الناس فى بعض الأوقات. . . فمن عثر على بعض المضطرين، وانتهى إلى ذى مخمصة من المسلمين، واستمكن من سد جوعته، وكفاية حاجته، ولو تعداه، ووكله إلى من عداه، لأوشك أن يهلك فى ضيعته، فيتعين على العاثر عليه القيام بكفايته.

كيف بأئمتنا لو علموا بأن منا من يتداعون بألا علم إلا الكتاب، ولا فهم إلا ما فهم السلف؟ وحاجتنا، اليوم، فى صناعة الطعام، وزراعة الأرض، وابتكار السلاح تتأكد فرضيتها لحماية الدين، والنفس، والمال، والعرض، والعقل، وهذه ضروريات مقاصد الشريعة. هذه هي الضروريات الخمس، والتي هي مقاصد الشريعة المقصودة بالقصد الأول إن الله تعالى قد أمرنا بإعداد ما

استطعنا من قوة فقال: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ فأين العناية بهذا الأمر؟ وهل يمكننا امتثاله إذا كانوا(هم) الذين يملكون القوة؟ هل يمكننا أن نعد (لهم) (وهم) هم الذين يخترعون، ونحن المستهلكون ؟

ياحسرة على المسلمين عندما تصبح غايتهم من الدين إحفاء الشارب، وإعفاء اللحى، ولبس (الجلباب). ويا حسرة على فكر المسلمين عندما يكون الاصطباغ بالدين هو تلكم الثلاثة. ويالحطة تاريخ المسلمين إذا كان صلاح الدين (لكى يحرر القدس تجلبب والتحى)، ويالضيعة القرآن عندما نقف بفهمه، وعطائه عند حد الماضين.

إن ضياعنا، فى عصرنا، سببه (المادى) الأكبر هو سبق عدونا المادى، فى السلاح، والاقتصاد، وسببه (المعنوى) الأكبر ما يتمتع به أعداؤنا من (الحرية) الفكرية، بعد أن كبلتها الكنيسة، فنشطت من عُقُلها تبحث فى كون الله، علويه، وسفليه، وتقهقرنا، نحن، فى هذا وذاك، فأورث الله الأرض عباده الصالحين، تحقيقا لوعده، ولن يخلف الله وعده.

وعدونا متنبه جيدا لهذه القضية وحقيقتها. ومن ثم يعمل جهده لقتل قوتنا فى السلاح والاقتصاد. أرأيتم ما أوقع بين العراق وإيران، وإلى ما كان يمد هؤلاء وهؤلاء. ثم أرأيتم كيف دبر

للعراق؟! أرأيتم كيف يغض الطراف عما وصلت إليه إسرائيل من السلاح؟ وكيف يمدها به. ألم تسمعوا ماكان يقول(بن جوريون): سنغزو العرب بالدبابات، فإذا لم يمكن غزوناهم بالجرارات. ثم ها نحن اليوم نرفع عقيرتنا، وفى مجالسنا التشريعية، ونقول: لولا إسرائيل ما أكلنا الموز ولا التفاح !!

ويا أسفا عندما تعرض هذه الحقائق المرة على أرباب قضية هذا البحث فينعق ناعقهم، وعلى المنابر: لن يحرر القدس إلا أصحاب اللحى والجلاليب. فماذا يبتغى الأعداء فوق ذلك، بل أدنى من ذلك ؟!

ولو جاز حكـمى فى العالمين	وعَـــدَّلت أقسام هذا الورى
لسميت بعض النساء الرجال	وسميت بعض الرجال النسا

١٧ ـ قد يجلو الحقيقة، أو يزيدها جِلاء، أن نجيب عن السؤال الثالث: ما هى السياسة الشرعية ؟

وقديما ابتلى(الفكر الإسلامى) بهذه القضية: قال ابن ألقيم فى كتابيه: الطرق الحكمية، وبدائع الفوائد: قال ابن عقيل، فى الفنون: الجرى فى جواز العمل، فى السلطنة الشرعية، بالسياسة، هو الحزم. فلا يخلو منه إمام. قال شافعى: لاسياسة إلا ماوافق الشرع.

قال ابن عقيل (الحنبلى) : السياسة: ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه

الرسول، ولا نزل به وحي. فإن أردت بقولك: إلا ما وافق الشرع: أي: لم يخالف ما نطق به الشرع، فصحيح. وإن أردت: ما نطق به الشرع فغلط، وتغليط للصحابة. فقد جرى من الخلفاء الراشدين، في سياسة الأمة ما لم ينطق به الشرع.

قال ابن القيم: هذا موضع مزلة أقدام، وهو مقام ضنك، ومعترك صعب، فرّط فيه طائفة فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق.. وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد.. فلما رأى ولاة الأمر ذلك، وأن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشيء زائد على ما فهمه هؤلاء من الشريعة، أحدثوا لهم قوانين سياسية، ينتظم بها أمر العالم. وأفرطت طائفة أخرى، فسوغت ما ينافى حكم الله ورسوله. وكلتا الطائفتين أتيت من تقصيرها فى معرفة ما بعث الله به رسوله.. فإذا ظهرت أمارات العدل، وتبين وجهه بأى طريق، فثم شرع الله ودينه. والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وعلاماته فى شيء، ونفى غيرها من الطرق التى هى مثلها، بل بين ما شرعه أن مقصوده إقامة العدل، وقيام الناس بالقسط، فأى طريق استخرج بها العدل والقسط فهى من الدين.

قلت: وهـذا كلام جامع وقاطع، وفهم فقيه فى دين الله (ومقاصده) يفصل فى قضية هذا البحث، ويقطع على (الجامدين) طريقهم المظلمة. ويجزم أن ليس الحق: ما نطق به الشرع فقط،

ونفى ما عداه، بل الحق ما نطق به الشرع، وما هدى الله به الفطر والعقول، مما لا يناقض الشرع. فكل علم وعمل وسياسة تحقق العدل، وتصلح شأن الناس، وتعينهم على عمارة الدنيا وحفظ الدين، ولو لم ترد فى نصوص الشرع فهى من شرع الله ودينه. على هذا مضت الصحابة، وبه قضى الراشدون. فمن أين أتت تلكم البلية؟ حتى يقول قائل من هؤلاء، كما جاء فى مطبوعة (سبيل النجاة) من إدارة البحوث بالرياض: وجوب طاعة الحاكم منا وإن ظلم، ووجوب معاداة غير المسلمين مطلقا، وحرمة موالاتهم، ومن موالاتهم: التكلم بلغتهم!!! وحجتهم فى ذلك أثر (مقطوع) ينسب إلى عمر قوله: «**لا تتعلموا رطانة الأعاجم**»!!

رحم الله إمام الحرمين الجوينى، إذ قال فى كتابه (غياث الأمم): ترك الناس سدى أجدى عليهم من تقريرهم على اتباع من هو عون الظالمين..

ورحم الله إمام المحدثين، وأستاذ الأستاذين فى الحديث، كما وصف مسلمٌ البخاريَّ، إذ قال فى صحيحه: باب من تكلم بالفارسية. وفيه: نطق، صلى الله عليه وسلم، بكلمات حبشية.

وينقلون عن ابن تيمية - بزعمهم - أنه قال بحرمة تعلم اللغات، مع أنه أفتى بجواز ترجمة القرآن والحديث. والأمر - عندى - لا يحتاج إلى فتوى، ولا إلى (مقطوع ولا موقوف ولا

سند) فالله سبحانه جعل اختلاف الألسن، كاختلاف الألوان من آياته، أفإذا تعلم مسلم هذه الآية كان مواليا لعدو الله؟! إلى هذه السَّهوة، وهذا الدرك، تهوى أفكار علماء وأتباعهم؟! يارحمة الله للإسلام من بعض المسلمين !!

أفلا تكون قراءتنا لما عند أعدائنا، ومعرفتنا لغاتهم من السياسة الشرعية، إن لم يكن من التعرف على آيات الله ؟!

تعالوا نؤلف بين أجزاء الصورة التى تراد لمجتمع المسلمين إذا تم لصحوتهم النجاح على تصور هؤلاء:

- مجتمع لا علم عنده إلا الكتاب والسنة، كله قراء وفقهاء.
- مجتمع لا يعرف لغات غير العربية، وينبز غيرها.
- مجتمع ينبز علوم النفس، وعلوم الكون.
- مجتمع ملتزم بزى اللحية والعمامة والقميص، وبيد كل فرد من أفراده عصا.
- مجتمع ليس له صناعات حربية ويرى أن أمضى أسلحته: اللحية والجلباب.
- مجتمع يعلم أعداؤه عنه كل شيء، حتى عادات النوم، واليقظة، والطعام والشراب.
- مجتمع حكامه ظالمون، وعلماؤه يسكتون عن الظلم، ويفتون

الناس بأن عدم طاعتهم خروج عن الأصل الإسلامى.

ـ مجتمع علمه الدينى محصور فى التعبديات، وابتكاره فى تفريعاتها، وفريضاتها.

ـ مجتمع الحق فيه هو ما نطق به الشرع، وما لم ينطق به فليس منه.

ـ مجتمع تداعى شبابه إلى ترك كليات الهندسة والطب ؛ لأنها حرام.

ـ مجتمع ينبز (دعاته) ألقاب: الكفر، والفسق، والنفاق، والبدعة، لكل من ينبز أفكارهم تلك.

ـ مجتمع يحكم على كل تاريخ المسلمين السابقين (ما عدا من يرونهم هم السلف) بالزيغ والبطلان.

ـ مجتمع يحجر على عطاء القرآن إلا ما أعطاه للسلف.

ـ مجتمع أساس علاقته بغيره الحرب والعداوة والبغضاء.

ـ مجتمع يرى (التعارف) بينه وبين غير المسلمين (موالاة) حرمها كتابه.

وأكتفى بما ذكر، مما لا يكتفى به. فأى مجتمع هذا؟ إننى لا أجد صورة مقاربة إلا ما كانت عليه شعوب أوربا فى قرونهم الوسطى، تحت سلطان كنيستهم تحكمهم بهذه المفردات، حتى

لكأن أصحابنا هنا ـ الذين ليسوا بأصحاب ـ يحكونهم، حذو القُذَّة بالقذة.

يالعنةُ الله والأقـــــوام كلهمُ

والصالحين،على سمعان من جار

١٨ ـ إن عدة الأمم فى تنازع البقاء أساسها: معتقدات، وأفكار، وحال نفسانية. وهى الأساس الذى بسلامته أو عطبه تسلم الأمة أو تعطب. ثم تأتى بعده (الماديات) من: المال، والقوة، والعلم التجريبى. والويل، كل الويل، لأمة أساسها، وسداها ولحمتها، تلكم المفردات السابقات.

لكأنى ـ والله ـ أرى أن الله، سبحانه، قد جمع لنا أشتات اليهود ليغسل عنا هذه الأدران.

قوم غضب الله عليهم، وأسكنهم كرة الأرض، ومزقهم فيها كل ممزق. توجد له: عقيدة، وفكرة، وحال نفسانية، كسبوا بها عطف القوى الكارهة للإسلام والمسلمين، فيغتصبون أرضهم، وديارهم، وأموالهم، ويتسلحون لما اعتقدوا، ولما فكروا، ولما شعروا، بأحدث السلاح، ويحصنون بأقوى الإنتاج الاقتصادى.. أفلا يوقظ ذلك هذه الأفكار التى رنّقت فى أعينهم سنة، فلا هم نيام ولا هم أيقاظ ؟! ويا حسرتا على ما فرطوا فى جنب الله، عندما تسمعهم يقولون لك، جوابا، عن هذا الواقع: نعم، ولكن

لن يحرر القدس إلا أرباب الجلابيب واللحى.

١٩ ـ إن (للقوة المعنوية) التى تكتسب من (الاعتقاد والفكرة) آثارها فى صنع الماديات، وحيل السلوك، التى تحفظ للمعنويات سلامتها ووجودها والتفاعل بين (المعنويات) وآثارها خارج النفس والذهن أمر لا ينكره أقل الناس علما ومعرفة. فإذا حرم الإنسان آثار (الدفع الذاتى) لمعنوياته، حرم القوة التى تحمى حقيقته، وعقيدته، فلا تلبث أن تهن منه عقيدته، وتضل منه حقيقته، وتصبح فرُطًا لغوائل ضعفه (المادى) وقوة عدوه.

ولنا شواهد من عصرنا، عندما سقط العالم الإسلامى، والعربى خاصة، ومصر على جهة أخص، ماذا أصاب (العقيدة)؟ وماذا دهى المجتمع ؟

فى غمار هذه المحنة:

ـ وقر فى نفوس الشباب الذين فتنتهم المدنية الغربية أن الانتساب إلى الدين سُبَّة، وأن الظهور بالمحافظة عليه مَعَرّة. حتى لقد اعتذر بعض المحاضرين عن عدم بدء محاضرته بحمد الله والصلاة على نبيه؛ لأن السامعين ـ لو فعل ـ لضحكوا منه.

ـ وعاث(الأجانب) فى أرض مصر فسادا، وهاموا فى الطرقات ليلا، يعسون وراء دور الخمر والقمار والفجور الظاهرة والمستترة. وألف الناس هذه المناظر، وغضوا الطرف على ما لم يتعوّدوا. .

وتخلف عن ذلك كله جيش من سماسرة الخنا. وقد وصف المنفلوطى هذه الدور وما فيها، فكان مما قال: رأيت من كنت أحسبه أوفر الناس عقلا، وأذكاهم قلبا، ومن كنت أراه فأغضى بين يديه إجلالا وإكبارا، واقعا فى حبالة بغى، تقيمه وتقعده، وتطويه وتنشره.. وهو فى غير هذا المكان قيصر الرومان عزة وفخرا، وكسرى فارس أنفة واستكبارا.

ـ وذاع طلب الخروج على قيم الدين ومبادئه، تحت اسم (الجديد) وهو يتلخص فى: أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره،وما يحمد وما يعاب. ومن لم يكن كذلك، فتهمة (الجمود) له حاضرة. وأطلقت تسميات خادعة، هزت (القيم) مثل: التقليد والتجديد، والجمود والتحرر، والرجعية والتقدم، والمرونة والتزمت. ونزع أصحاب (الجديد) إلى التفلت من قيود القيم ومبادئ الدين، وتُهُجِّم على الدين باسم التسامح، وتحطيم ما بقى فى نفوس الناس من توقير الدين. ونشروا شعار: حرر فكرك واتبعه حيث ذهب بك. ونشرت مجلة الهلال: أن مسألة وجود الله أو عدم وجوده ليست من المسائل الجوهرية.

ـ إلى جانب ذلك كله كانت الحياة الأوربية تغزو مصر دائبة

لاتني: افتتحت أول (سينما) بالقاهرة سنة١٨٩٦ ، ثم أنشئ البنك الأهلى، ومنح امتياز إصدار الأوراق المالية سنة ١٨٩٨ . وافتتحت الخمارات، حتى تغلغلت إلى الريف، وأحياء العمال. وافتتحت دور البغاء المرخصة من الحكومة فى كل العواصم.

- وتجلى أثر الأخذ عن المحتلين فى دعوات كثيرة كان أبرزها ثلاث:

١ - الحرية الشخصية، فلا يعترض على أحد فيما يفعل أو يقول.

٢ - تحرير المفكرين من سلطة علماء الدين، وفصل الدين عن الدولة، على النمط الأوربى .

٣ - تحرير المرأة، حسب تعبيرهم، ونبذ الحجاب، الذى حال - بزعمهم - بين المسلمة وبين الرقى الذى وصلت إليه المرأة الأوربية.

- وأصبحت مصر (القاهرة) مقراً لمكتب المخابرات الذى كانت تحاك فيه خيوط الجاسوسية الإنجليزية ضد الإسلام، ودولة الخلافة العثمانية. وساقوا المصريين، كرها، لقتالهم، وهم أبناء دينهم، فى قناة السويس، وفى الحجاز، وفى الشام، وفى العراق، وفى الدردنيل، وضد قوات (السنوسيين) . وفى هذا الوقت الذى كان المسلمون يجبرون فيه على قتال أبناء دينهم، كانوا يجبرون على التبرع للصليب الأحمر، ولأسر جنود(الحلفاء) المنكوبين، ولفرسان القديس يوحنا.

ـ والطامة الكبرى أنه عقب إعلان الأحكام العرفية، وقطع العلائق مع تركيا، أوعز الإنجليز إلى كبار العلماء بإصدار رسالة إلى الأمـة فى ٦/ ١١/ ١٩١٤م ـ تدعـوهـا إلى السكـون، والتفادى عن الفتنة، وإطاعة أولى الأمر[١].

فماذا يبتغى دعاة (لا تقرأ إلا الكتاب والسنة) وراء ذلك؟ هذه هى حوادث تاريخنا المعاصر، وكيف وهنت العقيدة لوهن القوة التى تحميها، بحكم التفاعل المتبادل بين آثار العقيدة وثمارها.

حقا إن النفس لتأسى أن يجد صاحبها نفسه مضطرا إلى توضيح الواضح، والاستدلال على البدهيات، التى هى ظاهرة بذاتها، وغنية بحقيقتها عن الاستدلال. والتى لا يتجارى فيها خصمان ولكن قضى الله أن يكون من مشكلات فكرنا المعاصر (وصحوتنا) الحاضـرة، وعـلاقاتنا، فيما بيننا، أن نقتل الوقت فى توضيح الواضح، والاسـتدلال على البديهيات، ونتجارى فى (التحسينيات).

إذا ساد هذا الفكر، وقدر له أن يحكم فهل نأمل به أن نعود ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾. هل يمكن أن تكون أمة (عرجاء

---

(١) راجع تفصيل كل ذلك فى الكتاب القيم (الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر) د. محمد محمد حسين .

التفكير) تفكيرها مجرد نظر، لا عمل، تأخذ بآيات الله المقروءة من الصحف، وتعرض عن آياته المدونة بأبلغ بيان فى صفحات الكون. . . هل لمثل هذه أن تسود ؟

إن حاجتنا (فى مدنية العصر) كحاجة تلك المدنية إلى ما عندنا من قيم ديننا ومبادئه وإنسانياته. فلو أننا أخذنا فى توجيه شعوب المسلمين وحكامهم إلى القيام بحق هذه الرسالة فى (هذه المدنية) وحق هذه المدنية علينا فى رسالة الإسلام - لانفتحت أمام المسلمين آفاق الدنيا، ولظللنا العالم بنسيم الإسلام، ورطبنا قلوب المدنية الحرى ببره وإقساطه. وعندئذ ينتشر الإسلام، ويظهر على الدين كله، ويتيسر لنا الاطلاع على ما عند الآخرين، وذللت لنا عقبات الحصول عليه، فى يسر ينفع ديننا ودنيانا، وتتحقق للإسلام عالميته، وللمسلمين ريادتهم، بل وقوتهم وقيادتهم.

وإن الله تعالى يعذب بأيدينا المعاندين، فإذا كانت أيدينا بَضّة بالنَّعمة، يدميها لمس الحرير، ويجرحها مَرّ النسيم، فأية أيدٍ هذه يقهر الله بها أعداءة ويقيم بها دينه ؟

ألا رجل رقيق القلب، مرهف المشاعر، سليم الفهم للدين، بصير بحال المسلمين - يأتينى، بغلس، فنجلس جلسة الآسفين، نبكى إلى الله حال المسلمين، لعل حديث الشوق يطفئ لوعة من الوجد، أو يقضى بصاحبه الفقد !!

والخلاصة:

إذا كان الإسلام لم يحجر على العقل، ولم يجعل الدين قيدا له.

وإذا كان الإسلام قد وسع مفهوم العلم، حتى شمل الكون والنفس.

وإذا كان الإسلام قد وسع مفهوم السياسة الشرعية.

إذا كان ذلك فلماذا هذا التحجير الذى يقضى، أول ما يقضى، على الإسلام وعلى المسلمين ؟

اللهم إليك المشتكى، وأنت المستعان على ما يصفون.

P

97

413

دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر المنصورة

٣٨ ش الثورة (السكة الجديدة) ت ، ف: ٣٤٣١١٥ ص. ب:١٦٧